وقفة: مع الوالدين

ما أجمل تلك الصورة، وما أبهى ذلكم المنظر الذي شُوهد في المسجد الحرام، إنه شاب يماني بار بوالديه، يحمل أمه، ويطوف بها الأشواط السبعة، وتطلب المسكينة من ولدها ألا يتعب نفسه، وبينما هو كذلك يكمل الطواف بوالدته، يرى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فيسأله قائلاً: يا ابن عمر، أتراني جزيتها حقها؟ فيقول: (ولا بزفرة من زفراتها حين الولادة).

الله أكبر، فماذا عساني وإياك أن نقول؟

إنه تكريم الله تعالى للإنسان، وإذا ما وصل الأمر للوالدين، بلغ التكريم غايته ومنتهاه، في وجوب الصلة، والتراحم، والإيثار، وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها، فاتفقت جميع الشرائع السماوية على وجوب احترام الوالدين والبر بهما.

فالشكر لله مقرون بالشكر للوالدين، حيث قال تعالى وتقدس: { وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾} [لقمان: ١٤].

ولقد أكرم الإسلام الوالدين إكرامًا عظيمًا، وجعل لهما المنزلة العلية، والمكانة الرفيعة، وأمرنا ببرهما، وإكرامهما، والإحسان إليهما، وعدم التأفف منهما، بل لقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم بر الوالدين من أحب الأعمال إلى الله تعالى، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما قال: (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ فقال: ♂**الصلاة لوقتها**ـــ، قلت: ثم أي؟ قال: ♂**بر الوالدين**ـــ، قلت: ثم أي؟ قال: ♂**الجهاد في سبيل الله**ـــ، متفق عليه.

فالحظ أخي الكريم أنه صلى الله عليه وسلم قدّم بر الوالدين على الجهاد في سبيل الله، وما ذا إلا دليل كافٍ على أن بر الوالدين كبيرة أهميته، وعظيم شأنه، بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل بر الوالدين جهادًا، وحسبك أن تقرأ حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: جاء رجل إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد، فقال صلى الله عليه وسلم :♂**أحيٌ والداك؟**ـــ قال: نعم، قال:♂**ففيهما فجاهد**ـــ، متفق عليه.

والأبلغ من ذلك أيها الأخ الحبيب، ما رواه أنس رضي الله عنه، إذ قال: (أتى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه، قال صلى الله عليه وسلم :♂**هل بقي من والديك أحد؟**ـــ قال: أمي، فقال عليه الصلاة والسلام:♂**قابل الله في برها، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد**ـــ، متفق عليه.

فيا لله، يا لها من منزلة للبارين بوالديهم، وكم لهم عند الله من الأجر والثواب، فاظفر ببر والديك، وكن من أولائك الذين يرزقون أجر الحاج والمعتمر والمجاهد ببرهم وإكرامهم للوالدين.

وإنه لمِما يؤسف له حقًا، ويعتصر له الجبين عرقًا، ويجعل القلب مكدرًا حزينًا، أن نرى أو نسمع أو نقرأ عن الكثيرين ممن أبوا إلاّ أن يسيؤوا لآبائهم وأمهاتهم، ناسين ما يقدمه الوالدان للأبناء منذ نعومة أظفارهم، وضاربين بالنصوص الشريفة التي تحتم الإحسان للوالدين عُرض الحائط، والله المستعان.

ويأبى الله، ورسوله، والمؤمنون أن يعامل الآباء والأمهات معاملة لا تليق بهم، فقد حذر تعالى اسمه من الإساءة إليهم، ولو بالتأفف، أو التذمر، أو الاستياء والازدراء والاحتقار، فقال سبحانه:{إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ

وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾} [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبوي يبكيان، فقال الرءوف الرحيم صلى الله عليه وسلم :♂**ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما**ـــ، رواه أبو داود.

هي تعاليم الإسلام السمحة، ومبادئه السامية، التي تنزل الناس منازلهم، فتعرف للوالدين حقهما، وتحفظ للولد حقوقه، فما أعظمه من دين، وصدق الله العظيم:{إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران: ١٩].

إن والديك أيها الحبيب، ويا أيتها الفاضلة، أحق الناس بحسن الصحبة، وجميل البر والإحسان، مكافأة لهما ومزيد، فلعظيم فضلهما عليك، وكبير إحسانهما إليك، وشدة عنايتهما بك صغيراً وكبيرًا، فلا تتردد وقل:{رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء: ٢٤].

بسببهما خرجت من العدم إلى الوجود، وبفضل رعايتهما اشتد ساعداك حتى صرت رجلاً قويًا، وحتى أصبحتِ أختي الكريمة سيدة فاضلة.

أيها الابن اللطيف، حملتك أمك وهنًا على وهن، حملتك كرهًا ووضعتك كرهًا، في عناءٍ وألم، وأضعفت قواها بإرضاعك حولين كاملين، صرخت، وبكت، وسهرت، وصبرت، جزاها الله خيرًا، ولم تزل مع أبيك في رعايتك، وخدمتك، والإنفاق عليك، أفلا يستحقان منك البر والعطف والتودد والإحسان؟

قف وقفة صدقٍ مع الله، وقل في الإجابة عن السؤال السالف: بلى هما أحق الناس بصحبتي، فلا عقوق بعد اليوم، ولا تأفف بعد

اللحظة، وسل الله التوفيق.

أيها المسلم، إن وجود والديك أو أحدهما فرصة ثمينة، لنيل مرضاة الله تعالى، وحصول الدرجات العلى، فكم من نادم على معاملته السيئة لوالديه وقد رحلا إلى الدار الآخرة.

كم يتمنى الكثيرون، لو كان أحدهم بارًا بوالديه، محسنًا إليهما يوم أن كانا على قيد الحياة.

فلا تفوتنّك الفرصة يا من تعيش الآن في كنف والديك، أو يعيشان هما في كنفك، عليك ببرهما، وطاعتهما، والإحسان لهما، والشكر إليهما، وهذه طريق الجنة إن كنت ممن يحرصون عليها.

جاء رجل يستشير النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له:♂**ألك والدان؟**ـــ قال: نعم، قال صلى الله عليه وسلم :♂**إلزمهما فإن الجنة تحت أقدامهما**ـــ، رواه الطبراني بإسناد جيد.

ولما سئل صلوات ربي وسلامه عليه: ما حق الوالدين على ولدهما؟ فقال للسائل:♂**هما جنتك ونارك**ـــ، رواه ابن ماجه.

وكما تعلمون أيها الفضلاء، أن الإنسان العاقل السوي، لا يهدأ له بال حتى يكافئَ من أسدى إليه معروفًا، أو قدم له خدمة ولو لمرة واحدة، فكيف بالحبيبين، الوالد والوالدة حفظهما الله، الذين شادوا حياة أبنائهم، بألمهم، وسهرهم، وتعبهم، وعرقهم، ودمائهم، وأموالهم، يحوطون أولادهم بالرعاية والحنان ليل نهار، ويستعذبون المرّ من أجل راحة أبنائهم.

كيف يُتصور أيها الأحبة، أن يُقابلَ الآباء والأمهات بالجحود والنكران، لهذه الرعاية، وتلك التضحيات؟ وكيف تسوّل للأبناء أنفسهم أن يعقوا والديهم؟

فنحن أمة القرآن الكريم، أمة الترابط والتلاحم، أمة التراحم والتآلف، أمة الوفاء والبر والإحسان، كبير الأسرة بيننا يبقى كبيرها، وكلما تقدمت به السن ازداد هيبة وجلالاً في عيون أبنائه وأحفاده، يتسابقون، بل ويتقربون إلى الله تعالى، بخدمة ذلك الكبير المسن، وتقبيل يديه، وطلب الرضا، فيا رضا الله ثم رضا الوالدين.

وما أجدرنا أن نقف عند حدود الله فلا نتعداها، وأن نبدأ حياة جديدة بدءًا باللحظة ملؤها المحبة والمودة والوئام، وأن نبادر إلى صلة الأرحام وبر الوالدين، فمن كان بارًا محسنًا في بره وإحسانه، فليزد في ذلك البر والإحسان، ومن كان غير ذلك فليبادر بالتوبة، وجبر الخاطر، وإصلاح الأمور والإحسان إلى الحبيبين الوالدين، فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها.

رزقني الله الحليمُ العظيم وإيّاكم، رزقنا حبّ والدينا، والبِرّ بهما، والإحسان إليهما، والحِلْم في التعامل معهما، ونسأله تعالى أن يبارك لنا في آبائنا وأمهاتنا إنه خير مُجيب، وأكرم مسؤول.

* * *